الأهرام

المصدر: الاهرام

التاريخ : ١٩ يونيو ٢٠٠٢

المسألة السودانية

هذا اجتهاد جدير بالاعتبار، ومثير للجدل يطرحه واحد بارز من القياديين السودانيين الجنوبيين، الذين لم يعهد القارىء العربى الاطلاع مباشرة على مايقولون. وهو صاحب رأى حريص على «وحدة حقيقية» للسودان.

وهو، ثالثا، من الذين عركوا السياسة خارج وداخل المسئولية الحكومية، أكثر من مرة وفى أكثر من عهد.. بما فيها الحكومة الحالية. وهو، رابعا، يتناول جوانب مسكوتا عنها، قد يعرفها القارىء لأول مرة.. وتفتح مناقشات مثيرة فى التاريخ. وهو، خامسا، لايكتفى برؤية نقدية بل يطرح حلولا سياسية وعملية لوحدة السودان التى يصبو اليها كل وطنى غيور.

هكذا، فى اطار تقاليد «الحوار القومى» الرصينة لنشر اجتهادات الرأى المختلفة الاتجاهات والمدارس السياسية والفكريه، نبدأ اليوم نشر الجوانب التاريخية ـ قبل وبعد الاستقلال ـ فى رؤية د. لام اكول. وننشر فى الاربعاء المقبل الحلول التى يقترحها لبناء وحدة الوطن السودانى. وبعدها، ننشر مداخلات ورؤى قيادات سودانية بارزة اخرى□

وجهة نظر أخرى فى مشكلات وحدة الوطن (١ ـ ٢)

السودان بحدوده الحالية دولة حديثة بدأت تتشكل فى العهد التركى ـ المصرى (١٨٢١ ـ ١٨٨٥) مرورا بضم مملكة دار فور عام ١٩١٦ وانتهاء بأحداث مابعد الحرب العالمية الثانية. هذا البلد الشاسع يتميز بتباين واضح عرقيا ودينيا وثقافيا. وحتى من حيث الجغرافيا، فالمناخ فى السودان يتباين من صحراوى فى الشمال وسافانا فى الوسط وشمال الجنوب إلى استوائى فى أقصى الجنوب. إن الأزمة التى يعانيها السودان اليوم سببها الاساسى هو سوء إدارة هذا التباين أثناء وبعد الاستعمار. والسؤال الذى يطرح نفسه بإلحاح هو: لماذا ظلت قضية وحدة السودان أو عدمها مطروحة بعد مايقارب نصف قرن من الاستقلال السياسى؟

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

لايختلف إثنان فى أن تناولَ الوضع الراهن لايمكن أن يتم بمعـــزل عن التطور التـاريخي للبـلاد والاحـداث التى شكلت هذا التـاريخ. وللأسف الشـديد فـإن تاريخ السودان نفسـه مـختلف حوله فى كثـير من جوانبه الاســاسـيـة. ليس بين المؤرخـين السودانيين والأوروبيين فحسب وإنما كـذلك بين السـودانيـين أنفـسـهم: شماليين وجنوبيين. ومن المعروف ان جل ماكتب عن تاريخ السودان تم على أيدى أوربيين (بريطانيين في الغالب) يضـاف الى ذلك مـاكـتـبـه المؤرخـين السودانيين وعلى رأسهم مكى شبيكة وضرار صالح ضـرار هذا الاختلاف حول سـرد الوقـائع التـاريخيـة يزيد الوضع تعقيداً على تعقيداته.

خلفية تاريخية

تعلمنا فى علم الرياضيات ان عملية تكامل الدوال الرياضية المعقدة يمكن اجـراؤها بإحـدى طريقـتـين: التكامل بالأجزاء . أو التكامل بالاستبدال .

ولا أجد ما أشبه به إشكالية الوحدة (أو التكامل) فى السودان اكثر تعبيرا من هذه العـمليـة الرياضـيـة فـالذين تعـاقـبـوا على حكم السـودان منذ الاستقلال (هم بالطبع شماليون) ظل اعتقادهم الجازم ان التباين الثقافى والدينى والعرقى يمكن إزالته بفـرض الهوية العربية الإسلامية على غير العـرب والمسلمين خـاصـة فـى جنوب السـودان. أى أن هؤلاء يعـملون على تحـقـيق التكامل السـودانى عن طريق إسـتـبـدال الثـقـافـات والأديان فى الجنوب ومناطق أخرى من السـودان بالهـوية العـربيـة الاسـلامـيـة . يقـول الدكـتـور مـوسى الخليـفـة فى هذا الصدد:إذا كانت ثقافة قد افـترضت ان لغـتـهـا هى الأحـسن، ودينهـا هو الأحـسن، وعنصـرها هو الأحـسن فـإنها تربى مواطنها بالاسقاط، بأن الثـقـافـات الاخـرى اقل . عند النظر للمشاكل العنصرية نجد أنها ناجمة عن هيمنة ثقافة معينة، والنظر إليها على أنهـا متـقـدمـة ومـخـتـارة وهذا يتـأسس على مـفـهـوم ان هناك ثقـافـة اعلى ، وثقـافـة أدنى وبالتـالى صـار هناك مفهوم اجتماعى باختلاف درجة بين العناصر المختلفة (موسى الخليفة - مجلة الخرطوم ١٩٨١ ص ٨٠).

فى مقابل هذا التوجه الاستبدالى، يصـر الجنوبيـون على الحـفـاظ على هويتـهم الثـقـافـيـة داعين إلى تحـقـيق التكامل السودانى بقيام وحدة البلاد على التنوع، أى الاعـتـراف بالأجـزاء المخـتـلفـة التى تكون فى مـجـمـلـهـا السودان الذى يسع الجـمـيع . لـهـذا الاخـتـلاف البين فى التصـور نشبت الحـرب وزاد أوارهـا تشـبث الحكام بالسلطة. من هنا يجب أن يبدأ تناول أمر وحدة السودان.

بالرغم من أن مـفـهـوم «الوحـدة فى تنوع» يبـدو البـدهى بمكان، ويطرح نفسه للتطبيق فى السودان إلا أن هذا المفـهـوم يصطدم بجدار سـمـيك من عناد دعاة الوحدة بالاستبدال والذين يشكلون دون غيرهم العقبة الحقيقية امام استقرار السودان. يذهب هؤلاء الى ان الحـرب فى الجنوب هى التى حـالت دون تحـقـيق وحـدة السـودان بمنظورهم ، وإنه مـاكانت للحـرب ان تقـوم لولا ان الاستـعـمـار حال دون إنتشـار الإسلام واللغة العـربيـة فى جنوب السودان ثم انه بعد ذلك عمل الاسـتـعـمـار على مـحـاباة الجنوب وسـعى لانفصـاله وضـمـه الى شـرق افـريقـيـا . أى أن مـأخـذ هؤلاء على الاستعمار هو أنه حال دون استبدال هوية المواطنين فى جنوب السـودان بالهـوية العـربية الإسـلامية. كل هذه المزاعم تطلق وكأنها حقائق تاريخية مثبتة ومن كثرة التكرار كاد الناس يصدقونها. ولكن الواقع يختلف تماما من كل هذا.

بادىء بدء ليس صـحـيـحـا ان الاستعمار هو الذى حال دون إنتشار الاســـلام والعـــروبة فى جنوب السـودان. فـالتـاريخ يثـبت العكس تماما، اى الاستعمار هو الذى اوقف تقدم القبـائل الجنوبية شـمـالا. ومن المعلوم ان قبيلة الشلك هى التى تحتل

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

د. لام اكول

الجزء الشمالى من جنوب السودان على ضفتى النيل الابيض، الطريق الوحيد حينها لتقدم الاستعمار جنوبا. كانت قبيلة الشلك عند دخول الاتراك والمصريين الى السودان عام١٨٢١ (عند انتقال السلطة من الرث يور كوديت اكون الى إبنه انيى يور) تسيطر على النيل حتى خط العرض ١٦ ب. ساندر سون - التعليم والدين والسياسة فى جنوب السودان ١٨٩٩ - ١٩٦٤ ، لندن ١٩٨١ ص ٨)..

فكلمة «الخرطوم» نفسها مشتقة من كلمة شلكاوية تعنى ملتقى نيلين (كيراتوم) (اكول - خلفية تاريخية عن قبيلة الشلك - ورقة عن ثقافة الشلك - الخرطوم - اكتوبر ١٩٩٨) تقهقر مقاتلو الشلك جنوبا تحت تفوق الأسلحة النارية الحديثة لدى المستعمر على سلاحهم الأبيض. وتركت قبيلة الشلك آثارا لاتنكزر فى منطقة النيل الأبيض وخاصة الكوة (أليص) والتى كانت تسيطر عندها على العبور الى غرب السودان.

وعندما بدأ محمد أحمد عبد الله (المهدى) ثورته فى الجزيرة عام ١٨٨١ كان قد وجد الجزيرة مقطونة بالشلك الذين رحبوا به وصنعوا له المراكب. فى حقيقة الأمر ان كلمة «أبا» اسم شكاوى معروف. ويقال أن الجزيرة أبا كانت ملك الأمير أبا ابن الرث توقو ضوكوث، الرث العاشر للقبيلة والذى بنى فشودة الحالية. المهم فى الأمر هو أن القوة الاستعمارية التى أزاحت الشلك جنوبا تدين بالاسلام وتتبنى اللغة العربية فقامت بنشر الثقافة الاسلامية واللغة العربية فى المناطق التى احتلتها. بمعنى آخر فإن الاستعمار توغل جنوبا ومعه انتشار الثقافة الاسلامية العربية، على عكس ما يدعى دعاة الوحدة بالاستبدال.

بنفس المستوى لم يكن الانجليز تحت الحكم الثنائى حريصين على نشر اللغة الانجليزية والمسيحية فى الجنوب، بقدر ما كانوا مهتمين بتثبيت وتعزيز قبضتهم على البلاد.

وفى الواقع فإن السير ونجت الذى كان أول حاكم عام للسودان بالفعل (اذا استثنينا الفترة القصيرة جدا التى قضاها كتشنر فى الخرطوم بعد انتصاره على المهدية) بذل قصارى جهده لارضاء المسلمين السودانيين من منطلق خوفه من قيام مهدية جديدة. فالرجل ضابط استخبارات ومن الواضح أن هذه الخلفية طغت على تفكيره فى هذا الجانب. فى سبيل ذلك اتخذ كثيرا من التدابير، من بينها عدم السماح بعمل جمعيات التبشير المسيحية فى شمال السودان وعندما اتجهت جنوبا لم تجد الدعم من الحكم الثنائى. وعلى يد هذه الجمعيات تلقى الرعيل الأول من المتعلمين الجنوبيين تعليمهم بهدف تعلم اللغة المحلية وقليل من اللغة الانجليزية. بما يمكنهم من قراءة الكتاب المقدس الذى تمت ترجمته الى عدد من اللغات المحلية فى جنوب السودان. فأين محاباة المستعمر للجنوب؟ ما كان للمستعمر أن يفصل الجنوب في غياب التعليم والتنمية فى هذه الرقعة.

فى مقابل هذا الوضع فتح المستعمر المدارس فى الشمال. وتلقى عدد كبير من الشماليين قدرا واسعا من التعليم، وصل الى مستوى التعليم العالى فى كلية غردون التذكارية وجامعات مصر. هؤلاء كانوا نواة النهضة السياسية فى شمال السودان. وهم الذين شكلوا الأحزاب السياسية الشمالية والتى - بدون استثناء - إما تكونت خارج السودان أو قامت بايعاز أو تأييد أحد طرفى الحكم الثنائى. هذه الحقيقة لا تشمل بالطبع الاحزاب الاقليمية التى قامت بعد الاستقلال مثل مؤتمر البجا واتحاد عام جبال النوبة والتى تمثل مناطق مهمشة تقع جغرافيا فى شمال البلاد.

ولأن الاستعمار غير معنى عادة بتطوير المستعمرات على أسس العدالة كما يدعى، وانما على أسس الاستغلال، فإنه بالتالى يسير مع التوجهات التى تفرزها الديناميات الداخلية فى المستعمرات. مع اجراء بعض التعديلات هنا وهناك التى تخدم مصالحه بالدرجة الأولى.

فالكيانات الاثنية الثقافية فى جنوب السودان وجبال النوبة، قد خضعت لسياسات المناطق المقفولة والتى يختلف حولها السودانيون. فالجماعات الإسلامية العربية تدينها إدانة مطلقة. بينما تنظر اليها الكيانات التى خضعت لهذه السياسات على أنها ساعدت على المحافظة على هوياتها وشخصياتها الثقافية فى وجه صراع غير متكافىء. فهى نبعت أساسا فى إطار قيام الاستعمار الإنجليزى بإلغاء مؤسسة الرق فى السودان.

قلما يذكر المؤرخون السودانيون الحروب التى خاضتها المهدية فى الجنوب وما نتج عنها من مرارات يزخر بها الأدب الشعبى فى الجنوب، وخاصة عند الشلك حتى اليوم. ففى خضم التنافس بين الامراء على مقعد رث الشلك احتمى يور أكوش أكووت بالمهدى وأشهر إسلامه وسماه المهدى «عمر» وبنفوذ المهدى أصبح عمر رث الشلك عام ١٨٨٢ وعينه أميرا هناك واعتلى مقعد الرث فى فشودة، الا أن ضغط عادات القبيلة وتقاليدها فيما يختص بوضعية الرث، أجبر الرث عمر على التخلى عن الصلاة ومناسك الإسلام الأخرى مما اعتبره الخليفة عبدالله ارتدادا عن الاسلام. لهذا السبب، وبالاضافة الى الحاجة الملحة فى أم درمان للحصول على الذرة، تم ارسال حملة تأديبية ضد الشلك تحت قيادة الأمير الزاكى طمل فى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر. قاوم مقاتلو الشلك هذه الحملة بشجاعة وثبات نادرين. الا أن قوة السلاح النارى مع سهولة التحرك على الحصين كانت لهما الغلبة فى نهاية المطاف. قتل عشرات الآلاف من الشلك فى هذه المعارك وتم أسر أعداد كبيرة منهم واستولت قوات الخليفة على ما وجدوه من غذاء فى المنطقة. ازاء هذا الموت والدمار أضطر الرث يور أن يسلم نفسه لينقذ من تبقى من شعبه. الا أنه لم ينج من مقصلة المهدية وقطع رأسه بقرية «ليم» جنوب كدوك عام ١٨٩٢ . وتم تنصيب أمير آخر (كور نيضوك أكووت) بواسطة الخليفة عبدالله كرث للشلك عام ١٨٩٢ وسمي «عبدالفضيل». هذا هو الرث الذى وجده الميجر مارشاند فى كدوك عام ١٨٩٨ وتم نفيه إلى حلفا من قبل الحكم الثنائى عام ١٩٠٢ حيث مات هناك.

لم يكن الرث يور أكوش أكووت أول رث يموت على أيدى قوات المهدية. فقد قتلوا قبله الرث كريكون كواثير أكووت فى ديسمبر عام ١٨٨١ فى قدير. وعليه عندما يتحدث بعض المؤرخين عن الثورة المهدية بأنها ثورة وطنية شاملة، يستغرب الشلك ومعهم بقية الجنوبيين ويتساءلون ببراءة: أى وطن يقصدون؟

بالاضافة الى الاثنين أعلاه قتل الأتراك من قبل الرث كواثكير أكووت يور والرث أجانق كور نيضوك فى عامى ١٨٧٠ و١٨٧٥ على التوالى.

خلاصة الأمر أن السودان الحالى لم يصبح قطرا واحدا إلا بعد الحرب العالمية الثانية. وأن الحروب التى دارت بين القوات التى كانت تحكم الشمال، منذ التركية السابقة بما فى ذلك المهدية، خلقت ترسبات سالبة لم يضعها المستعمر فى الحسبان عندما قرر فى النصف الأخير من الأربعينات توحيد الجنوب والشمال. بل أن المستعمر نفسه قد ساعد على تعميق التباين فى التعليم والتنمية بين شقى القطر. هذا الوضع كان بالامكان تصحيحه لو كانت الحكومات المتعاقبة بعد الاستقلال على مستوى المسئولية المطلوبة لمعالجة الأمر.

ما بعد الاستقلال

يزعم دعاة الوحدة الاستبدالية أن قبائل الجنوب بلا ثقافة (أو على أحسن الأحوال ثقافة متدنية) وعليه فإن الوحدة يجب أن تتم بسوقهم على اعتناق الإسلام وتعلم اللغة العربية قسرا اذا دعا الحال. هذا هو سبب

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

تحسرهم المستمر على ما سموه بالمشوار الذى أوقفه الاستعمار فى هذا الاتجاه. وتركيزهم فيما بعد جميع الوسائل على طمس اللغات والعادات فى الجنوب لاستبدالها بالثقافة الاسلامية، خير دليل على ذلك. لا تسمع اللغات المحلية إلا نادرا ومن خلال البث الاذاعى الدعائى لاغراض الحرب. وذهب الغرور أو الجهل ببعضهم الى الادعاء بأن اللغة العربية أو لهجة منها سميت «عربى جوبا» هى لغة التخاطب بين قبائل الجنوب المختلفة. هذا نسج من الخيال. فلهجة «عربى جوبا» لا تتعدى حدود المدينة التى سميت عليها. اذ أن أفراد قبيلة البارى الذين يقطنون حول المدينة لا ينطقون بها، ناهيك عن قبائل الجنوب الأخرى، فالقبائل المتجاورة فى الجنوب إما أن تتعلم لغات بعضها البعض وتتخاطب بها أو تكتفى بمن يجيد التحدث بلغة القبيلة الأخرى ويكون مترجما للآخرين من قبيلته. فهذه هى طريقة التخاطب التى نعلمها.

عندما استلم الشماليون السلطة من الحكم الثنائى، مضوا بحماس منقطع النظير فى تطبيق سياسة أسلمة وتعريب الجنوب كحل وحيد لقضية الحرب التى انفجرت فى توريت فى اغسطس عام ١٩٥٥. هذا العمل كان ينفذ باسم «الوطنية» ولم يتم الاعتراف بالتباديد الثقافى والدينى والعرقى بين الجنوب والشمال، إلا بعد عقد من الزمان فى عهد حكومة اكتوبر الانتقالية عام ١٩٦٤. ربما يرجع الفضل فى هذا الاعتراف الى السيد رئيس الوزراء حينذاك (السيد سر الختم الخليفة) الذى قضى جزءا كبيرا من سنوات خدمته الحكومية فى جنوب السودان، وعليه فهو يدرك واقع الجنوب أكثر من زملائه الشماليين.

السيد سر الختم نفسه يحفظ له التاريخ أنه هو الذى عين جنوبيا (السيد كلمنت أمبورو) فى منصب وزير الداخلية لأول وآخر مرة فى تاريخ السودان.

ولم تكتف حكومة سر الختم الخليفة بالاعتراف بالتباين بين شطرى القطر فقط، بل وجهت الدعوة الى عقد مؤتمر المائدة المستديرة بجوبا ليضع حلا لقضية الجنوب. لم تسمح الظروف الأمنية بانعقاد المؤتمر فى جوبا. ولكن انعقد بالفعل فى الخرطوم فى مارس ١٩٦٥ وحضرته كل القوى السياسية من الشمال والجنوب ومندوبو سبع دول إفريقية كمراقبين (مصر، الجزائر، اوغندا، كينيا، نيجيريا، تنزانيا وغانا). توصل المؤتمرون الى اتفاق حول كل النقاط عدا نقطتين فقط. الأولى هى عن وضعية الجنوب فى ظل الحكم الاقليمى المتفق عليه: هل يكون إقليما واحدا أو ثلاثة أقاليم؟ الموقف الموحد للأحزاب الشمالية هو أن يكون الجنوب ثلاثة أقاليم. بينما أصر الجنوبيون ان يكونوا فى إقليم واحد.

النقطة الثانية تتعلق باختيار رئيس اقليم الجنوب (أو رؤساء اقليم الجنوب حسب الحال) هل ينتخب من قبل الجنوبيين أم يعينه رئيس الجمهورية؟ كان رأى الجنوبيين أن يتم اختيار رئيسهم بالانتخاب تمشيا مع مبدأ الحكم اللامركزى وضمان اختيار من يتمتع بثقة الجنوبيين.

الا أن الأحزاب الشمالية أصرت على أن يعين رئيس الجمهورية رئيس الجنوب. فهم الجنوبيون هذا الموقف الشمالى الموحد على أن الاحزاب الشمالية لا ترغب فى مشاركة حقيقية لهم فى حكم البلاد. وأن هذه الأحزاب تريد فرض القيادات على الجنوبيين.

فشل مؤتمر المائدة المستديرة ومن بعده مؤتمر الأحزاب ولجنة الاثنى عشر فى الحصول على اتفاق سودانى لحل المشكلة بسبب الخلاف حول النقطتين أعلاه. حسم نظام جعفر محمد نميرى هاتين النقطتين لصالح موقف الجنوبيين. مما أدى الى توقيع اتفاقية اديس أبابا فى فبراير ١٩٧٢ وتمتع السودان بعدها بسلام شامل دام احدى عشرة سنة. وما كانت الحرب لتتفجر من جديد لولا أن نميرى نقض غزله بنفسه بعد المصالحة فى عام ١٩٧٧ مع الاحزاب الشمالية التى كانت تعارضه وحاربته وظلت تعارض اتفاقية أديس أبابا، بل وادعت بوجود بنود سرية فيها.□

[كاتب هذا المقال، قيادى بارز من الجنوب، ووزير النقل فى حكومة السودان]□

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية